النظم بين نحو القواعد ونحو المباني

د. عبدالنبي همّاني

- من المملكة المغربية، أستاذ باحث في اللغويات وتحليل الخطاب، في فاس.
- حاصل على الدكتوراه، من كلية الآداب والعلوم الإنسانية، ظهر المهراز، فاس- المملكة المغربية.
- له بحوث ودراسات في اللغويات وتحليل الخطاب.

ملخص:

الرصيد المعياري فاعل في تشكل الخطاب، وفي صياغة بنية نظمية على أساس التواصل والمزية المقصودة، من خلال احترام الحدود المعيارية درءًا للانحراف عن الصواب، ورغبة في جمالية تعبيرية. فأساس التباين النظمي المقتضى المعياري الذي يفيد في إبداع الصياغة، وفي تحقيق التخاطب المنشود، وقد عُدّ النظم ملتقى النحو والبلاغة، والشريك الاصطلاحي لفن العبارة ومعاني النحو، والتحليل الشكلي لإمكانات التعبير وصوره المختلفة، وصيغة التناسب بين الصور التعبيرية وسبل تحقيق المعنى، وحصر الخصائص الفنية أو الأدبية في الكلام، كما اعتبر معادلا لنظرية تعلق الكلمة بما يجاورها من الكلمات، فلم يكن التفريق بين النحو والبلاغة مقصودا، بل كان النظم يشمل الكل؛ تأليف الجملة وسرّ تركيبها، ثمّ بيان حسنها أو قبحها، ولا شكّ أنّ هذا الأمر مشترك بين علم النحو والبلاغة لدوره في الكشف النظمي، وفي جوهر بلاغة الصور الأسلوبية.

وقد ارتبط النظم بثنائية المعيار والمعنى والترابط العلمي والمنطقي وفق الأصول، ووفق نظرية النظم التاريخية التي أخضعت جمالية الصورة، ومزية العبارة، وغير ذلك ممّا له صلة بعلمي المعاني والبيان لسيطرة علم النحو، ممّا دفع بعض الدّارسين الذين جمعوا بين الدرس اللغوي القديم، ومعطيات الدرس اللغوي الحديث إلى اعتبار علم المعاني قمة الدراسة النحوية، وإلى ضرورة إرجاع هذا العلم إلى رحاب الدرس النحوي؛ منبعه

الأصلي، ليغدو الدرسَ المعياري الحقيقي الجامع بين النحوي والبلاغي، وبين الوضعين الطبيعي/ نحو القواعد، والجمالي/ نحو المعاني.

Abstract:

Standard Balance active in the formation of the speech, and the drafting of systemic structure on the basis of communication and unintended advantage, through respect for standard ward boundaries for the deviation from the truth, and the desire for aesthetic expression. The foundation of the contrast systemic standard requirement that benefits in creativity drafting, and in achieving the desired communication, has been counting systems Forum grammar, rhetoric, and partner idiomatic art words and meanings of the way, and analysis pro forma for the potential expression of various forms, and the formula of proportionality between the images expressive and ways to achieve the meaning, and limit the technical characteristics or Literary speak, was also considered equivalent to the theory attached to the floor including environs of words, did not differentiate between grammar, rhetoric intentional, but it was the systems includes all; authored Wholesale mystery installed, then a statement for her good looks or ugliness, no doubt that this is a joint matter between the science of grammar, rhetoric for his role in the detection of systemic and, in essence stylistic eloquence images.

Systems has been associated with the duality of the standard and the meaning of scientific and coherence in accordance with the assets, according to historical systems that subjected the aesthetic image,

and the advantage of the gateway theory, and so on, which was linked to my knowledge the meanings and the statement of the control of science as such, leading some scholars who combined the old language lesson, and data Lesson Language talk to consider semantics summit grammatical study, and the need to return to the fold this science lesson grammar; the original its source, to become a truly inclusive standard lesson of grammar and rhetoric, and between the natural modes/ about rules, and aesthetic/ about meanings.

مقدمة

تجلت فكرة الترابط بين نحو القواعد ونحو المعاني/ علم المعاني، عند عدد من علماء العربية، وعُدّت خطوة مهمة من خطوات الدرس النحوي، واتساعا ملحوظا في درس العربية، ومن تجليات هذه الفكرة أثرُ النحاة في البحث البلاغي، وتقفي أمر الامتزاج بين ما هو نحوي وما هو بلاغي كما هو موسوم في الكتاب لسيبويه **(ت١٨٠هـ)** قبل تداول مصطلح علم المعاني، وطرح قواعد العربية على يد ابن جني**(ت٣٩٢هـ)** في **(الخصائص)** طرحا شجاعا، مرتميا في أحضان التدقيق العلمي، والإقناع المنطقي بسر العدول وصحة التعليل، ثمّ نظرية النظم التي أقامها الجرجاني **(ت٤٧١هـ)** في **(دلائل الإعجاز)** على المعاني النحوية، على أساس أنّ جمالية الأسلوب تتجاوز قواعد العربية الثابتة التي تخص نحو القواعد إلى ما هو مرتبط بالجمال والمزيّة، ولن تتحقق هذه المزية إلا حين التعامل مع الصور الأسلوبية كأبنية فنية، تضع أمام المتلقي العربي رصيدا أسلوبيا واسعا لانتقاء الصيغ التعبيرية التي ستشكل أسلوبه المطابق لمعانيه وأفكاره تطابقا مقبولا، ويؤكد هذا الانتقاء قدرة على الاهتداء إلى الصور الأسلوبية والفروق الدقيقة الموجودة بينها، الشيء الذي يحيلها إلى أنساق متميّزة من خلال النظم/ التأليف بين الكلمات، أو بالأحرى إلى إمكانات أسلوبية عديدة.

هكذا نريد أن يكون النحو والدلالة في معادلة علمية إيجابية ومتساوية، وأن يتخطى علماء العربية/ النحاة الحقيقيون بذلك دائرة الصواب والخطأ إلى مجال المزيّة والجمال، فتتسع الصور الأسلوبية، ويتسع النحو فيعطي ما يمكن أن يسمّى جمالية النحو الذي سيضمّ كل ما يراعى في النظم من عناصر فنية. فقواعد النحو جزء من الصورة الأسلوبية المنظومة، ويمكن أن يساهم إلى جانب قراءة فنية موازية لما تبقى من أجزاء النظم الأسلوبي؛ من قواعد معجمية وصوتية وتركيبية في إرساء مقاربة نقدية جديدة قادرة على الإحياء الجمالي لمعادلة النص والقاعدة، وإعادة المكانة لمعاني النحو/ علم المعاني، لتحقيق الوصلة الطبيعية بين مستوى القاعدة/ رصد الأداء وتمثل الضوابط، ومستوى المعاني/ رصد التركيب وتمثل العلاقة بين المعنى والمبنى، وأقصد الترابط الجمالي بين البناء والدلالة.

الدرس النحوي بين اللفظية والجمالية:

١. نحو القواعد ونحو المعاني:

لم يمنع تمكن علماء العربية والنحو من رصيد العربية النحوي أن يتجاوزوا عتبة التقعيد حفاظا على المقدّس الديني واللغوي في السطور والصدور، نحو أفق جديد من البحث اللغوي الأسلوبي يتوخى في الأساس الجمع بين مبحثي دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، وقد حققوا نقلة بالدرس النحوي على وجه الخصوص، من وضع القواعد النحوية الثابتة والصارمة في وجه المخطئين في حق الفصاحة والبيان وسلامة التعبير العربي، إلى وضع التجاوز لإبراز إمكانات النحو الجمالية، ودور القاعدة النحوية في صياغة الأسلوب والدلالة معًا، ونظم الصيغ التعبيرية القائمة على المعاني النحوية والقيم الأسلوبية، وفي الإشعار بدور النحو في الاستعمال اللغوي، وحين حصر بعض النحاة النحو في أواخر الكلمات والتعرف على أحكامها، (**ضيقوا من حدوده الواسعة، وسلكوا به طريقا منحرفة، إلى غاية قاصرة، وضيعوا كثيرا من أحكام نظم الكلام وأسرار تأليف العبارة**)[١]. فالانتقال من طور القاعدة إلى طور الاستعمال قادر على تمكين الدرس النحوي من الكشف عن أسرار جمالية اللسان العربي، والوقوف على ملامح بيانه وفصاحته، ومكامن

(١) إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ص ٣-٢.

حسن الصورة والتعبير، في علاقة الكل بطبيعة المتلقي، وخصوصية المقام ومقتضى الأحوال، وبمباحث جديدة فُصلت عن صيرورة الأبواب النحوية لتدخلَ عوالم اصطلاح جديد هو علم البلاغة، وضعه في البدء علماء النحو أنفسهم، وأرسى معالمه وأبوابه علماء البلاغة المتشبّعون بقواعد النحو العربي، وقد كان الفصل بين الاصطلاحين وبين الفريقين من العلماء فصلا شكليا في نظري، وخطأ تاريخيا أبقى الدرس النحوي في مستوى القاعدة، وسجين نظرية العامل التي اختزلته في التغير الحركي الشكلي، وانحرفت به على يد العديد من النحاة نحو مسار الأبواب والتقسيمات الشكلية، وأهملت دوره الأساسي والمؤثر إلى جانب المستويات اللسانية الأخرى، (**فالنحاة حين قصروا النحو على البحث في أواخر الكلم قد أخطأوا إلى العربية من وجهين: الأول: إنهم حين حددوا النحو وضيقوا بحثه، حرموا أنفسهم وحرمونا إذِ اتبعناهم من الاطلاع على كثير من أسرار العربية... الثاني: إنهم رسموا للنحو طريقا لفظية**)[1].

لقد كان النظام النحوي أساسيا في (**العلاقات بين الملفوظات التي نترجمها من خلال الوصف الإعرابي إلى أبواب نحوية**)[2]، كما كان

(١) إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ص ٧-٨.

(٢) عبد النبي همامي، نظرية الإعراب بين فاعلية العامل وتضافر القرائن، ص٣٥.

الربط بين الدرس اللغوي/ النحوي، ونظرية العامل التي أحكمها أغلب نحاة العربية المتقدمين في خضم الصراع الأبدي بين ما هو طبيعي لغوي وما هو فلسفي عاملي، عنصرا أساسيا في إهمال كل اجتهاد نحوي جمالي ضمن مشروع علمي يتوخى استغلال قدرات الدرس النحوي الجمالية، بإرجاع اجتهادات بعض علماء العربية ونحاتها، ممن صنفوا على حساب البحث البلاغي، وجهودهم النحوية/ البلاغية، التي اهتمت برصد دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة، إلى حظيرة الدرس النحوي العربي، فهؤلاء العلماء هم أهل المعاني الذين استطاعوا استغلال نحو القواعد، لأجل حصر الظواهر الأسلوبية حيث القيم الفنية ومعالم المزية والجمال/ نحو المعاني، (**وهم النحاة الحقيقيون فيما أزعم، وهم الذين دفعوا بالدرس النحوي إلى الأمام، وقدموا للدارسين فيه نتائج طيبة خليقة بأن يستفاد منها**)[1].

علم المعاني مبحث بلاغي، وهو الوليد الشرعي للدرس النحوي في مستواه الجمالي الذي خاضه علماء العربية المتميّزون، والذي نما وترعرع في أحضان الدراسات الأسلوبية التي تجاوزت البحوث النحوية المرتبطة بمعاني الصيغ التعبيرية، والوقوف عند مكوناتها، في إطار المطابقة الحتمية والبسيطة بين الصور الأسلوبية وقواعد النحو التي تحكمها، ضمانا لاستمرارها بالأسلوب المحفوظ في حياة أجيال من

(١) مهدي المخزومي، في النحو العربي، نقد وتوجيه، ص٢٩.

العلماء الذين ربطوا بين صحة المعاني الإعرابية وصحة العوامل، وكان تناول الظواهر الأسلوبية مبثوثا في مؤلفاتهم النحوية، دون وعي بضرورة الفصل بين النحوي والبلاغي، وبذلوا جهودا تاريخية في الوقوف عند الاستخدامات اللغوية المتميّزة، وكان لهذا التوجه دور كبير في توجيه مسار وتثبيت منهج جديد في الدراسة الوظيفية الجمالية لمعطيات الدرس النحوي، ودوره في أوضاع التعلق بين الألفاظ، والكشف بنمط جديد عن أسرار الأسلوب ودقائقه، وكل (**من يتتبع نشوء الاهتمام بالقضايا البلاغية وما تحويه من ألوان البيان والبديع عند النحاة السابقين من عهد الخليل، ويجمع الملاحظات المتفرقة التي يصادفها في كتبهم من أمثال سيبويه والفراء والمبرد، لا شك أنه سوف يجد أشياء كثيرة ممتعة وشائقة، تدخل في تاريخ البلاغة العربية**)[1].

٢. علماء العربية ونحو المعاني:

كان الخليل(١٧٥هـ) سباقا إلى الكشف الأسلوبي لمختلف الاستخدامات اللغوية، والوقوف على معاني الصيغ التعبيرية ومكوناتها، والتدرج نحو خصوصية الأسلوبية العربية، ورصد بعض قيمها الفنية وأسرارها الجمالية، ممّا عدّ نتفا بسيطة ممهدة لدرس جمالي، يرتقي بالحدود النحوية نحو الاستغلال الوظيفي المتميّز الذي يجعل الدرس

(١) عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، ص٢٣١.

النحوي عنصرا مشاركا في قراءة الخطاب، قراءة منهجية تراعي الأصول والثوابت، وتستلهم معطيات الدرس اللغوي الحديث؛ قراءة تراهن على وضع الرصيد النحوي على محك الاختبار والتجريب، بين نحو القواعد ونحو المعاني. ونحو المعاني تحليل لغوي يقوم على قواعد النحاة ويهدف إلى دقة الفهم وعمق الاستيعاب، وفي الأمر تجاوز للقاعدة النحوية وترديدها، وترك لحصر الأمر في الحركات/ الأصوات، التي تتوالى على مؤخرة الكلمات، (**ذلك أنّ العلم بالإعراب مشترك بين العرب كلّهم، وليس هو ممّا يُستنبط بالفِكَر، ويستعان عليه بالرويّة**)[1]؛ ولذلك دعا درويش الجندي (**دعوة صارخة إلى دراسة النحو على منهاج جديد، يقوم على الحس والذوق وحسن التخيّر**)[2].

وقد اعتمد سيبويه (**١٨٠هـ**) على رصيد الخليل في هذا المجال، وعلى أسلوبه الذي لا يفارق المعنى، وأضاف لذلك قيما فنية من خلال تناوله للصيغ التعبيرية تناولا جماليا، أبرز معالمه في مؤلفه (**الكتاب**) الذي ضمّ بين دفتيه إرهاصات علوم البلاغة، فنهج بذلك أسلوبا جديدا في تحليل الظاهرة الأسلوبية، يجمع بين نحو القواعد، والجهد الذاتي في بسط الجانب الجمالي، بما هو معهود في قراءات سيبويه التي جعلته قارئا عربيا متميزا وجامعا بين النحو والأدب، متمرّنا على تذوق

(١) الجرجاني(ت٤٧١هـ)، دلائل الإعجاز، ص٣٩٥.

(٢) درويش الجندي، نظرية عبد القاهر في النظم، ص١٢٢.

الظواهر الأسلوبية بما يخدم الدرس النحوي ومسيرته في حقل المعاني، البعيد عن الارتباط جملة وتفصيلا بنظرية العوامل، والقريب من النهج التذوقي ومن خصوصية الدرس البلاغي دون إدراك سابق للفواصل الموجودة بين الدرسين، فالمولود الجديد نما في أحضان (**الكتاب**) قبل أن يقصد بالمعاني والبيان والبديع علوم بلاغة، ذلك أنّ (**سيبويه تخطى في كثير من المسائل صحة العبارة، وترتيب أجزائها وموقعها الإعرابي إلى هذه الأغراض البلاغية التي يقتضيها الحال فهو كثيرا ما يرمي بتعليلاته وتفسيراته إلى هذه المعاني**)[1].

فسيبويه كان سباقا لإرساء النظرية النظمية من خلال التنظير لأسس التعبير اللغوي العربي، والتناول المعمّق لمختلف الصيغ التعبيرية أثناء الوقوف على ضوابطها النحوية. وقد عُدّ سيبويه من الرواد الذين اعتنوا بأوضاع الإسناد/ الوضع النظمي، في الأوضاع اللفظية التي تشكل التراكيب على اختلاف صيغها النظمية، وهو من الأوائل الذين ألقوا البذرة لميلاد نظرية النظم، وأثّروا في البحث النظمي الذي أنار السبيل أمام الجرجاني وغيره من علماء المعاني لتطوير هذه النظرية، وإرساء علوم البلاغة العربية خاصة علم المعاني، (**ممّا اعتبره النحاة – وما**

(١) عبد العزيز عبده أبو عبد الله، المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل، ١/ ٣٢٦.

أصابوا - خارج مجال اهتمامهم)[1]. فكان هذا البحث حجر الزاوية للبحوث الموالية التي اعتنت بالنظم وأشكال الإعراب في سبيل الوقوف على آليات القبض على المعاني، وتنمية الذوق الفني، والحس اللغوي الوظيفي بمختلف مكونات التركيب العربي، الذي أثمر جهودا في غمار البحث عن المعاني المترتب عن الخوض في غمار الظاهرة النظمية/ اللغوية، التي أرست رصيدا نحويا وصرفيا وبلاغيا، لازال أساسيا في الصور الأسلوبية المستخدمة، كالتقديم والتأخير والإظهار والإضمار والتعريف والتنكير، فالمعاني هي الأصل، و(**اللفظ تبع للمعنى في النظم، وأنّ الكلم تترتب في النطق بسبب ترتّب معانيها في النفس)**[2]. كما أنّ معنى اللفظة لا يتحدد تحديدا دقيقا، ولا يدل على شيء واضح، وهي منفردة مستقلة عن غيرها من الألفاظ، وغير موجودة في سياق، فينبغي الأخذ (**في الحسبان أشياء أخرى مهمة كالموقعية، والارتباط الداخلي بين الوحدات المكونة للجملة أو العبارة، وما إلى ذلك من مسائل لها علاقة بنظم الكلام وتأليفه)**[3].

---

(١) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص١٨.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٥٥-٥٦. فـ(النظم هو تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض) وليد محمد مراد، نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني، ص٥٦.

(٣) كمال محمد بشر، دراسات في علم اللغة، ص١٣. فـ(الكلمة الحقيقية هي الكلمة في السياق) كريم زكي حسام الدين، أصول تراثية في اللسانيات الحديثة، ص٤٨. ذلك =

لم تتوقف أعمال سيبويه عند العلامات الإعرابية، بل تجاوزتها إلى الاهتمام باللفظة في ترابطها الفاعل والمنفعل بغيرها من الألفاظ المنظومة وفق ضوابط نحوية وصرفية، وضمن صيغ تركيبية في إطار نظم الجمل المشكلة للنص، فتجاوزَ بذلك الدرسان النحوي والصرفي الحدود النحوية/ نحو القواعد، الذي يتوخى معالجة الخطأ والصواب في التركيب العربي، إلى الأمور الوظيفية في اللغة/ المستوى الجمالي في الصيغ التعبيرية التي تشكل النظم العربي، ذلك أنّ سيبويه لم يكن يفرق بين النحو والبلاغة، والنحو عنده (**يشمل أيضا تأليف الجملة ونظمها، وسر تركيبها، وبيان ما فيها من حسن أو قبح، ولا شك أن هذا لا يشمل علم النحو فحسب، وإنما يشمل أيضا البلاغة كما نعرفها اليوم**)[1]. وكانت هذه المحاولات التحليلية الواعية بقيم الدرس النحوي الجمالية في حاجة إلى دراسات مستفيضة تمكّن من الإحاطة بجمالية هذا الدرس، التي ظلت حيّة على مستوى الجهود التي بذلها بعض علماء العربية والنحو الذين عُدّوا النحاة الحقيقيين، وخاضوا في المجاز قبل أن يُعرف كمصطلح بلاغي له حدوده المعرفية والمنهجية، كما بذلها بعض

=

أنّ (السياق وحده هو الذي يستطيع أن يبيّن لنا ما إذا كانت الكلمة (قريب) مثلا تعني قرابة الرحم أو القرب في المسافة) ستيفن أولمان، دور الكلمة في اللغة، ص٥٩.

(١) عبد القادر حسين، أثر النحاة في البحث البلاغي، ص١٢٩.

علماء التفسير الذين اشتغلوا في دلائل الإعجاز اللغوي والقرآني، وأسرار البلاغة، وهكذا أصبح الدرس النحوي على يد سيبويه وعلى يد هؤلاء درسا راقيا، ينبغي العودة إليه لدوره في الكشف عن المسار الحقيقي المعرفي والمنهجي لهذا الدرس، وفاعلية ذلك في تصويب أدواره نحو كشف جمالي ودلالي للتركيب اللغوي العربي، فسيبويه يدرك أنّ اللغة حيّة، ويؤمن بالترابط الشرعي بينها وبين الحدث التعبيري، ولكلامه **(دلالات أسلوبية، فمع أنّه لا يبين فرقا معنويا بين العبارة المستعملة والتمثيل النحوي، فإنّ مجرد النص على أنّ هذا التمثيل لا يتكلم به، أو يقبح في الكلام، يعني الشعور بأنّ الفعل اللغوي في نشاطه الإبداعي، يمكن أن يتجاوز الحدود الأكثر منطقية، والتي يدل عليها النحو بالتمثيل)**[1].

شكل طول التمحيص سببا في الرقي بالدرس النحوي نحو مباحث وأسرار لغوية مهمة، اختزلت في الترابط المنطقي بين العلامات الإعرابية والعلل/ الأسباب، التي تحكمها في الكلام العربي، وأنتج هذا الاجتهاد العلمي عُدّة من القواعد التي لا حدود لها، والتي تطّرد في الاستخدامات اللغوية، وينبغي احترامها بالرجوع إليها والاحتجاج بها، وتجلت هذه القواعد فيما اصطلح عليه بعلل النحو/ علل الإعراب، التي تخص أسرار التغيرات الحركية في مؤخرة الكلمة، لينتقل بعد ذلك

(١) السيد فضل، جماليات اللغة بين القاعدة والاستعمال، ص٢٩-٣٠.

الدرس النحوي إلى طور البحث في جمالية الصيغ النظمية التي تحكمها قواعد الإسناد، ويمكن الإشارة في هذا الصدد إلى كتاب (**مجاز القرآن**) لأبي عبيدة معمر بن المثنى(**ت٢١٠هـ**) الذي (**سمّى بحثه المجاز، أي طريق التعبير، وتناول غير الإعراب من قوانين العبارة العربية**)[١]، وحاول أن يضع جملة من قواعد ربط الكلام وتأليف الجمل من خلال تفحص عدد من الظواهر الأسلوبية كظاهرة الحذف والذكر والتقديم والتأخير وغيرها من الظواهر اللغوية، فكان بحثه فتحا جديدا في تاريخ الدرس النحوي، و(**بابا من النحو جديرا أن يفتح، وخطوة في درس العربية حرية أن تتبع**)[٢].

وتسمية البحث بالمجاز دفع بعض العلماء إلى عدّه مؤلفا بلاغيا في الوقت الذي لم تكن فيه التسمية من مصطلحات البلاغة العربية، ولم يكن يقصد بها إلا طرق التعبير وما تتطلبه من أحكام نحوية، ونظمية، وللأسف لم يهتم النحاة بما يميّز أسلوب بحثه، ولم يتوجّهوا (**إلى شيء مما كشف عنه أبو عبيدة في كتابه (مجاز القرآن)، وأهمل الكتاب ونسي. ووقع بعض الباحثين في أيامنا على اسمه فظنوه كتابا في البلاغة. وما كانت كلمة المجاز إلى ذلك العهد قد خصصت بمعناها الاصطلاحي**

(١) إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ص١٢.

(٢) إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ص١١.

في البلاغة وما كان استعمال أبي عبيدة لها إلا مناظرة لكلمة النحو)[1].

وقد كان ابن جني **(ت٣٩٢هـ)** من الأوائل الذين أرسوا بعمق خصائص العربية في مؤلفه المتميّز **(الخصائص)**، وذلك من خلال نظرته الشمولية في تناول مستويات اللغة، وتفاعلها الآلي والجمالي، بتداخل ما هو نحوي فيما هو نظمي، وما هو معجمي فيما هو بياني، وما هو بنيوي/ صرفي ونحوي، فيما هو صوتي، باستغلال الدرسين النحوي والبلاغي، ومعطيات فقه اللغة وأصولها استغلالا وظيفيا وجماليا، يولي أهمية للمعاني الوظيفية، وخصائص العربية، اعتمادا على دربة وفطنة العالم اللغوي الذكي، والحس اللغوي الفائق والقادر على كشف أسرار التعبير، وعلى ما تراكم من موروث لغوي على يد النحاة وعلماء العربية، ولم يكن الهدف الاستمرارية في التتبع الآلي لحدود وقواعد اللغة، والعمل على التصنيف والتبويب، وإنما رصد المعاني الوظيفية لكل وضع نظمي، ذلك أنّ كتاب **(الخصائص) (مبني على إثارة معادن المعاني، وتقرير حال الأوضاع)**[2]. فالكتاب ليس في إقرار الأحكام النحوية، والتعرف على الوجوه الإعرابية، ولكنه بحث في المعاني الوظيفية، وكشف **(عن معادنها ونهج كل طريق يوصل إليها)**[3].

(١) إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ص١١-١٢.

(٢) ابن جني(ت٣٩٢هـ)، الخصائص، ١/ ٣٢.

(٣) منيرة بنت سليمان العلولا، الإعراب وأثره في ضبط المعنى، ص١٢٦.

هكذا نبه ابن جني إلى مسألة الترابط بين المعاني والأوضاع اللفظية التي تحكمها أوضاع التعلق، وعدَّ جملة من الاستخدامات اللغوية كالقصد إلى المضارع من خلال استعمال الماضي، أو إرادة الماضي من خلال استخدام المضارع، استخدامات جمالية قائمة على استغلال ظواهر الإسناد، استغلالا جماليا مستمدا من الأسرار البلاغية والفوائد البديعة التي مهّد إليها سيبويه في تناوله للأساليب العربية تناولا وظيفيا وجماليا، وفتح هذا الاستغلال الوظيفي والجمالي بابا جديدا من أبواب الدرس البلاغي خاصة علم المعاني، وقد أعجب ابن جني بهذا الاستغلال الذي استحسنه، وزاد الفكرة تعميقا من خلال الربط بين الأفكار والإجراء، وتحليل المعطيات تحليلا كاشفا عن أسرار التعبير العربي.

الجرجاني والأفق الجمالي للدرس النحوي

١. التداخل النحوي والنظمي:

يعدّ الرصيد النحوي أحد مكونات اللغة القادرة على صياغة نظم قائم على أسس القصد والمزية، من خلال احترام الأصول/ نحو القواعد، درءا للخطأ والانحراف عن التوجيه الصائب، وتحقيقا لنقلة متميّزة نحو جمالية تعبيرية، ومن خلال استغلال هذه الأصول استغلالا خاصا، تبرز على أساسه المقدرة اللغوية الذاتية في إقامة صيغ لغوية/ نظمية، قادرة على الفهم والإفهام، وعلى التأثير بأسلوب جمالي. فأساس الاختلافات النظمية/ التركيبية، المقتضيات النحوية التي تجعل هذه الصياغة أجمل من تلك، وأفيد في تحقيق التواصل المؤثر والمنشود، وعُدّت نظرية النظم لعبد القاهر الجرجاني (**ت٤٧١هـ**) (**وما يتصل به من بناء وترتيب وتعليق من أكبر الجهود التي بذلتها الثقافة العربية قيمة في سبيل إيضاح المعنى الوظيفي في السياق أو التركيب**)[١]. فهي النظرية العربية لفن العبارة، ولعلم المعاني الذي تترابط بواسطته الألفاظ، وتتوالى التراكيب المحدثة للإبلاغ والتواصل المقصود، وهي

(١) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص١٨. يقول سمير شريف استيتية عن نظرية اللسانيات النظامية ونظرية النظم: (لا تختلف رؤية أصحاب هذه النظرية للنظم، في شيء ذي بال، عما هو عليه مفهوم النظم عند الجرجاني) اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج، ص٢٠١.

النظرية التي استوعبت دور أحكام الإسناد في الاستخدامات اللغوية، وأدوارها الهامة في صياغة صور أسلوبية عديدة يقوم الإنسان بإنتاجها اعتمادا على قطبي الانتقاء والتأليف، وحسب متطلبات المقام. والصورُ الأسلوبية قائمة على أوضاع الإسناد التي تنتجها أحكام التعلق، أثناء توالي الألفاظ وعلاقات التجاور التي تنظم الصيغ التعبيرية المختلفة، والمراعية لمقتضى المعنى المرصود، وأحوال المقام المطلوب، فالقصد من هذا النظم (**علم المعاني- أي معاني النحو- فهذه المعاني هي التي يترابط بها الكلام، ويتعلق بعضه ببعض تعلقا خاصا يحدث الأثر البلاغي المطلوب في رأي عبد القاهر**)[1].

ونظرية النظم ذات أثر كبير في الدرس اللغوي العربي، أبانت عن تفاعل مكوناته البنيوية والمعنوية، وبنياته النظمية والنحوية، وهي أقرب إلى النظرية التفاعلية بين المستويات اللسانية المشكلة للصور الأسلوبية العربية، فقد رسم الجرجاني (**طريقا جديدا للبحث النحوي، تجاوز**

(١) عفت الشرقاوي، بلاغة العطف في القرآن الكريم، ص١٧، فـ(الجرجاني تجاوز مرحلة النظر في أحكام النحو باعتبارها قوانين مجردة إلى مرحلة النظر في هذه الأحكام باعتبارها أدوات لتحليل النص الأدبي وفهم الأسلوب، ومع ذلك فهو لم يرفض المصطلحات والمفاهيم النقدية، بل عدّها جميعا أدوات ووسائل لتحليل الكلام، وفهمه بصورة أفضل وأعمق). سمير شريف استيتية، منازل الرؤية: منهج تكاملي في قراءة النص، ص٢١-٢٢.

أواخر الكلم وعلامات الإعراب، وبيّن أنّ للكلام نظما، وأنّ رعاية هذا النظم واتباع قوانينه هي السبيل إلى الإبانة والإفهام)[1].

فقد ثبت تنظيرا وممارسة الترابط العلمي بين النظم والمعاني النحوية، وبين الموروث الفكري والرصيد النحوي، وهو الأساس الذي قامت عليه آلية التعلق عند علماء العربية، وأرست معالمه نظرية الجرجاني النظمية التي أرسى أسسها علماء اللغة والنحو يتقدّمهم سيبويه في مؤلفه **(الكتاب)**، حيث الاعتماد أوّلا وأخيرا على دور الرصيد النحوي في توجيه الموروث البلاغي/ المعنوي والبياني، وهو ذو أثر في تأليف الصيغ النظمية ذات المزية الفنية، والجمالية التعبيرية، **(فلست بواجد شيئا يرجع صوابه إن كان صوابا، وخطؤه إن كان خطأ، إلى النظم، ويدخل تحت هذا الاسم، إلّا وهو معنى من معاني النحو)**[2]. فالقاعدة النحوية أساس في الأوضاع النظمية، وجوهر الصيغ المعنوية والبيانية/ الجمالية، وكل إخلال بالأوضاع النحوية يعد إسقاطا لأوضاع التعلق، وإفسادا لكل الأوضاع اللغوية القائمة على حسن ضبط علاقات الإسناد، ذلك أنّ أحكام إسناد الفعل إلى الاسم، وأوضاع النحو بين

(١) إبراهيم مصطفى، إحياء النحو، ص١٦.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٨٢-٨٣. سيلاحظ قارئ (دلائل الإعجاز) (أن الجرجاني يراعي النحو في كل أفكاره...، منتخبا إياه على غيره من العلوم لتأكيد آرائه) عبد النبي همامي، جمالية تحليل الخطاب، ص٤٣.

أجزاء القول محكمة بقوة القواعد النحوية، وينبغي مراعاتها عند التفكيك لكل وضع نظمي، ولكل بنية دلالية لا تنفك عن أوضاع المعنى/ المضمون، إلى جانب أوضاع الجمال/ الشكل، وهي أوضاع المزيّة والفضل التي تودّ إرساءها صيغ النظم القائمة حتما على قواعد الإسناد، والذين يحطون من قيمة هذا التعلق إنّما يغالطون جوهر الوضع النظمي للصور الأسلوبية، ف(**لا بدّ من مسند ومسند إليه، وهما ركنا الجملة الأساسيان،.. فالنظم عند عبد القاهر ليس سوى حكم من النحو نتوخاه**)[1].

تغدو الضوابط والأصول النحوية منبعا للإضاءة الأسلوبية المتميزة، والظواهر الجمالية للأوضاع اللغوية التي ستصبح أفقا رحبا من الدلالة المتميّزة، وسيحيل هذا الاستنطاق الدرس النحوي درسا راقيا يدفع إلى الاستغلال الوظيفي لقواعد اللغة العربية، وإلى الاستخدام الجمالي القادر على إفراز الظواهر الأسلوبية المتميّزة، وعناصر اللغة المتفاعلة والقادرة على استغلال كيمياء كل خلطة لسانية لأجل كل أفق تعبيري مشبع بالجمالية، فاعل وقادر على التأثير في الأذواق التي مجّت الصورة الأسلوبية المتداولة نحو فضاء رحب من الصيغ التعبيرية الخاصة،

(١) حاتم صالح الضامن، نظرية النظم: تاريخ وتطور، ص٤٩. وانظر قواعد التعلق عند أحمد مختار عمر، علم الدلالة، ص٧٥.

فإدراك المعنى الفني مرتبط بإدراك عناصر الجودة الفنية في التعبير، كما أنّ دلالة هذا التعبير رهينة بأحكام التعلق بين الأوضاع اللفظية التي تقدم ما يسميه الجرجاني معنى المعنى، وهو بذلك يخضع كل نشاط لغوي لمنطق هذه الأحكام، ففي قوله تعالى: ﴿وَٱشۡتَعَلَ ٱلرَّأۡسُ شَيۡبٗا﴾[1]، شيء **(آخر من جنس النظم، وهو تعريف (الرأس) بالألف واللام، وإفادة معنى الإضافة من غير إضافة، وهو أحدُ ما أوجبَ المزيّة)**[2].

لا يخفى أثر الدرس النحوي في أقسام الدرس البلاغي العربي، وبخاصة علم المعاني الذي كان ثمرة ناضجة من ثمار جهود علماء العربية، وبخاصة النحاة في المراحل الأولى لإرساء نحو القواعد، والبحث عن سبل التناسب بين النحوي والقرآني/ المقدّس، وبينه والفني/ الشعري، المتداول. وقد ترعرع هذا العلم في رحاب الدراسات النحوية التي تخطت الأمر إلى الكشف عن الأوضاع النظمية المختلفة، وإلى الملامح الجمالية القائمة عليها. هكذا يغدو النحو حاسما في حصر الدلالة العميقة والمنشودة، وسبل إبلاغها الجمالية، ووسيلةً من وسائل الرقي إلى سلم الكشف عن أدوات التصوير، والانتقال من الواقعي إلى المتخيل، وأساسا من أسس الجودة التعبيرية والبلاغية،

(١) القرآن الكريم، رواية الإمام ورش، (القاهرة: دار المصحف، (د. ت))، سورة مريم، الآية ٣.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٠٢.

وملمحا من ملامح البراعة القادرة على الإغراء، وعلى التسابق لامتلاك هذه الناصية المؤثرة في كل صياغة لغوية قادرة على دفع المتلقي نحو آفاق المعاني والخيال وصناعة الصورة الفنية، ويمكن الاستدلال على ذلك بمحاولة الجرجاني توضيح وتحليل جملة من قواعد الإسناد، ودورها في تشكل جمالية عدد من الصيغ النظمية التي يتألف منها قول المتنبي(ت٣٥٤هـ):

غَصبَ الدَّهرَ والملوكَ عليْها فبنَاها في وجنَة الدَّهر خَالا[١]

فـ(**موضع الأعجوبة في أنْ أخرج الكلامَ مُخرجه الذي ترى، وأنْ أتى (بالخال) منصوبا على الحال من قوله (فبناها)**)[٢]. فالقيم الفنية غير مرتبطة بقصد المتكلم ونيّته، وإنما بالصيغ النظمية والاستخدامات اللغوية القائمة أساسا على مختلف أشكال التعلق، ذلك أنّ المعاني النحوية ذات دور في قيم النظم، ورسم ملامحه الجمالية، وتوليد دلالات عميقة بآليات يمتزج فيها كيمياء مستويات اللسان، وأثر القاعدة

(١) العكبري(٦١٦هـ)، شرح ديوان أبي الطيب المتنبي(ت٣٥٤هـ)، ٣/ ١٤٥.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٠٣. فالجرجاني يقصد التعلق أو الرصف غير العادي، وهو الرصف الخاص الذي ينسجم والقصد إلى المباحث البلاغية غير (جافة قائمة على الحدود والتعريفات، بل كانت بلاغية تطبيقية، فالاستعارة، والكناية، والتمثيل، وسائر ضروب المجاز من بعدها من مقتضيات النظم) محمد عزام، من دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص٢٤.

النحوية والصرفية بضوابط الفن والجمال. فالترابط قويّ بين بنية نظمية خاصة وما تحكمها من أواصر التعلق النحوي، ومسألة إبطال أو صحة الصورة الشعرية المراد تخيلها، فهو النظم الذي يعدّ فيه **(حال المنظوم بعضه من بعض، وليس هو النظم الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق)**[1]، فالملاحة في قول بعض الأعراب:

اللّيـــلُ داجٍ كَنَفَـــا جِلبابِـــه والبـــينُ محجـــورٌ علـــى غُرابِـــه

(أنْ جعل (الليل) مبتدأ، وجعل (داج) خبرا له وفعلا لما بعده وهو (الكَنَفَان)، وأضاف (الجلباب) إلى ضمير (الليل)، ولأن جعل كذلك (البينَ) مبتدأ، وأجرى محجورًا خبرًا عنه، وأن أخرج اللفظ على (مفعول))[2]. يشبه ذلك قول ابن المعتز **(ت٢٩٦هـ)**:

يَـــا مِسْكَـــةَ العَطَّـــارِ وَخَـــالَ وَجْـــهِ النهَـــارِ[3]

فـ«**الملاحة في الإضافة بعد الإضافة، لا في استعارة لفظة (الخال)**»[4].

(١) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص٤٩.

(٢) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٠٢-١٠٣. فالعلاقة بين النحو والبيان وطيدة، ذلك أنّ علم النحو (في علم البيان من المنظوم والمنثور بمنزلة أبجد في تعليم الخط، وهو أول ما ينبغي إتقان معرفته لكل أحد ينطق باللسان العربي) ابن الأثير(ت٦٣٧هـ)، المثل السائر، ١/ ٤١.

(٣) ابن المعتز(ت٢٩٦هـ)، ديوان أشعار الأمير أبي العباس، ١/ ١٨٠.

(٤) الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص١٠٣.

لقد أصبحت النظرة الضيقة للقاعدة النحوية ولأثرها في الفعل النظمي متجاوزة، ولم تعد المعاني النحوية محصورة في مستوى التقعيد الذي يضمن للنظم سلامة النحو واللغة، ولم يعد الإعراب آلية لضبط هذه السلامة من خلال الحرص على الترابط المنطقي والعلمي بين العلامات الإعرابية والعوامل النحوية، وفق أصول نظرية العامل المشهورة والفاعلة في قواعد النحو العربي، بل أصبحت الرؤية أعمق وأرحب، وأصبح العامل النحوي وآلياته الإعرابية أدوات فعّالة في رسم الملمح الجمالي والفني للصور الأسلوبية على اختلافها، وقادرة على استفزاز القارئ المتميّز لسبر أغوار هذا الملمح، ورصد الأبعاد الدلالية العميقة، والجوانب الجمالية لمختلف الاستخدامات اللغوية، فأساسُ النظم المعاني النحوية، ومناطُ القيم الفنية القدرة على التشغيل الوظيفي للأساس النحوي، وعلى تقديم صيغ تعبيرية يختلف مستواها الجمالي باختلاف صورها النظمية، ومعانيها النحوية المتخيّرة، فينبغي **(أن نكون على بصيرة بتفرقة عبد القاهر الضمنية بين) أصول النحو (التي هي قوانين التركيب التي يحصرها في مدخل دلائل الإعجاز)، و(علم النحو (الذي يحاول عبد القاهر أن يرسي قواعده)**[1].

لقد انتفع النحو بنظرية النظم وبجهود طبقة خاصة من علماء

(١) نصر أبو زيد، مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني، ص١٥.

العربية، واجتهادات النحاة الحقيقيين، وظلت شامخة عند تجاوزها للحدود النحوية، إلى أفق الاجتهاد والتنقيب عن دلائل الإعجاز، وهو في الواقع تنقيب عن مواطن الجمال، وعن مواقع تميّز الصور الأسلوبية عن غيرها من الاستخدامات اللغوية بفضل البنيات النظمية القائمة على الاستغلال الوظيفي والجمالي للنحو في علاقته بالدلالة العميقة المراد تبليغها.

وينبغي التنبيه إلى دور هذه النقلة الوظيفية من الوضع التقعيدي إلى الرصد الجمالي، في البحث عن مواقع التفاعل المتميّز في الاستعمال اللغوي/ النظمي، بين المعنى النحوي والدلالة، فـ(**قد أكد عبد القاهر أثر التركيب النحوي في المعنى، وما يترتب على ذلك من بلاغة التعبير، فتعلق بآفاق من النحو الجمالي تتجاوز مجال البحث في الصواب والخطأ الذي طالما شغل النحويين الخلص**)[1]. إنّ الانتقال من الاهتمام بالمعنى الوضعي إلى المعنى التركيبي قد دفع الاتجاه البلاغي من خلال (**دلائل الإعجاز**) و(**أسرار البلاغة**) لعبد القاهر الجرجاني إلى شقّ الطريق أمام منهج من مناهج النقد الأدبي، يرجع له الفضل في

(١) عفت الشرقاوي، بلاغة العطف في القرآن الكريم، ص١٧. فـ(المعاني النحوية لترتبط ارتباطا كبيرا بنظرية النظم عنده إن لم تكن هي نفسها من حيث تعليق كل كلمة بما يجاورها من الكلمات) أحمد سليمان ياقوت، دراسات نحوية في خصائص ابن جني، ص١٩٩.

التناول المتميّز للمعاني النحوية والدلالية التي اتخذت من الصيغ التعبيرية موضوعا للبحث والدراسة، مثل أساليب النفي والنهي والاستفهام والنداء والندبة وغير ذلك من التراكيب العربية التي لم يقتصر بحثها على الأدوات والمكونات التركيبية والمعاني المرتبطة بها، بل تجاوزت ذلك إلى ما عُدَّ مبحثا جديدا من مباحث الدرس البلاغي العربي، و(**النحو العربي أحوج ما يكون إلى أن يدعي لنفسه هذا القسم من أقسام البلاغة الذي يسمّى علم المعاني حتى إنّه ليحسن في رأيي أن يكون علم المعاني قمّة الدراسة النحوية أو فلسفتها إن صحّ هذا التعبير**)[1].

٢. الدرس النحوي والمعنى التركيبي:

استفاد عبد القاهر الجرجاني(**ت٤٧١هـ**) من هذا الاجتهاد اللغوي الذي قام به عدد من علماء النحو والعربية، وعلماء معاني وإعراب القرآن، كما استفاد الدرس اللغوي العربي على يديه من أهل التفسير الذين بحثوا في مظاهر وتجليات الإعجاز القرآني، لذلك عُدّ مرحلة علمية متقدمة من مراحل الاستفادة من علوم العربية وتداخل مستويات اللسان العربي، من نحو وصرف ومعجم وتركيب وصوت، كما عُدّ حلقة مهمة من حلقات الدرس النحوي واستغلال أسراره، ومشهدا

(١) تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها، ص١٨.

أخيرا (**في سلسلة الجهود السابقة عليه في مجال النقد والنحو والبلاغة، كما يمثل كمال الإفادة من هذه العلوم الثلاثة في بلورة مفهوم نحوي جديد يكون -في جوهره - نظرية مكتملة في فهم النص الأدبي من خلال صياغته**)[1]. وسيعمل كتاب (**دلائل الإعجاز**) إلى جانب (**أسرار البلاغة**) على إبراز دور علاقات الإسناد، في صياغة الصور النظمية، حيث يلعب النحو دورا جماليا مؤثرا في تشكل الظواهر اللغوية، والاختلاف فيما بينها من حيث تميز ظاهرة أسلوبية معينة عن أخرى، حيث (**لا يستقيم التبين اللغوي إلا باستيفاء المواضعات اللغوية لمعانيها، وباحترام العلاقات التجاورية لحدود اللغة**)[2]، وكان علم المعاني مسؤولا عن هذا التجاوز في تناول الظاهرة الأسلوبية، كما كان ملتقى نحو القواعد والدراسة الجمالية لكل نظم، ولا شك أنّ إلحاق هذا النوع من الدراسات، والاجتهاد الجمالي، بمعطيات الدرس النحوي، سيعمل على إحيائه، وبعث الروح فيه من جديد، وغزارة المادة النحوية والفنية، وسيجعل هذا الدرس رحبا، وأفقه البحثي شاسعا، وقد استطاع عبد القاهر الجرجاني استيعاب هذا التصور في ثنايا التنقيب عن دلائل الإعجاز في الأوضاع النظمية القرآنية، التي تجاوزها

(١) محمد عبد المطلب، النحو بين عبد القاهر وتشومسكي، ص٢٥.

(٢) عبد النبي همامي، ظاهرة الإعراب بين المواضعات اللغوية والعلاقات التجاورية، ص٥٤.

إلى الصيغ الفنية/ الشعرية، حيث غدا (**النحو العربي نحوا إبداعيا ذا وظيفة مزدوجة، يحقق سلامة اللغة وسلامة التواصل، ويساهم في الجمالية اللغوية والأسلوبية، إلى جانب غيره من علوم العربية**)[١]، وجدير بالدارس العربي أن يعيد هذا العلم إلى حظيرة الدرس النحوي، ليتمكن على إثر ذلك من إعادة قراءة التراث اللغوي العربي قراءة جديدة ومتميّزة، تعترف بأثر المعاني النحوية على النظرية النظمية القائمة على تمازج النحوي والبلاغي، ودور ذلك في تشكل التعبير اللغوي/ الفني، المتميّز، فحسب عبد القاهر الجرجاني (**ثمة فرق كبير بين اللغة والأدب، وإن الألفاظ والقواعد النحوية لا قيمة لها في معجمات اللغة وكتب النحو، وإنما مدار الأمر وقف على وضع هذه المواد الأولية في نظم أو نسق يتصرف فيه الأديب بوجوه النحو واللفظ**)[٢]. فالتماسك النحوي البلاغي والنقدي قد أبعد الدرس النحوي عن نعوت القواعد النحوية الصارمة التي غدت متجاوزة بحكم المباحث البلاغية التي تسير بجوار المباحث النحوية في إطار منهج متكامل لدراسة الصور الأسلوبية قصد الوقوف على دلائل إعجازها وأسرار بلاغتها، هذا المنهج الذي أصبح قادرا على كشف التداخل والتفاعل الموجود بين قيم التعبير الفنية وخصوصية المعاني النحوية،

(١) عبد النبي همامي، آليات تحليل الخطاب، ص٨٧.

(٢) إبراهيم خليل، الأسلوبية ونظرية النص، ص٤٨.

والإفصاح عن الدلالات المقصودة على الوجه العلمي الدقيق، وعن أسرار الاستخدامات اللغوية الجمالية، ومواقع الجودة الفنية القائمة على الاختيار الواعي، وحسن التأليف، حيث أضحت القواعد النحوية عند الجرجاني، (**من طرق التصوير والصياغة ومعيارا يهتدى به في البراعة يقوم أساسا على نوع من الانتقاء والاختيار**)[1].

لقد ألح الجرجاني في (**الدلائل**) على هذا التماسك الكلي والمؤثر بين المعاني النحوية والصيغ النظمية البلاغية، لدوره في الإبانة عن الأسرار الجمالية لمختلف الصور التعبيرية، بالاعتماد على دربة ومقدرة القارئ في التعامل مع الوضعيات اللغوية المختلفة، وإبراز الفروق النظمية الموجودة بينها، والخلفيات الجمالية والإبداعية الكامنة وراءها، ولإنجاح ذلك ينبغي التوفر على التكامل المعرفي والمنهجي اللازم، وتعميق الدراسة الذوقية، والوقوف على مكونات الظاهرة الأسلوبية اللغوية والدلالية، في علاقتها بالسياق ومقتضى الحال، ومخالفة الوضع اللفظي للدرس النحوي، وهو الوضع الشائع البعيد عن البحث في دلائل ومواقع الجمال، والقيم الفنية، والوعي بهذه المفارقة ضروري لتجاوز نحو القواعد إلى نحو المعاني، أو تجاوز المحفوظ من القواعد نحو الاستعمال، فقد أصبح النحو (**يستهدف تبعا لذلك طبيعة الوحدات الكلية وعلاقاتها التجاورية التي يبدعها**

(١) حلمي خليل، العربية والغموض، ص٢٠.

النحو)[1].

الإدراك العميق لخصوصية الصور الأسلوبية القائمة على الأوضاع اللفظية وعلاقات الإسناد، يؤدي إلى الإيمان برحابة الدرس النحوي، واتساع أفق مباحثه، والقدرة على استغلال معطياته وإمكاناته النحوية استغلالا خاصا، جعلت أثره قويّا من خلال علوم البلاغة/ المعاني والبيان، في الصيغ النظمية، وفي مجال الأداء الفني/ الشعري والنثري، حيث لكل بناء نظمي الخصوصية النظمية، والمجال النحوي الذي ينبغي أن يتحرك فيه، فالأداءُ الشعري فضاء خاص ورحب لبناء نحوي متميّز، وشكلٌ تعبيري ذو طبيعة مستقلة وقائمة على نحو متداخل بين الصور الشعرية والعناصر الصوتية والإيقاعية، مما يوحي بالإمكانات الدلالية الرحبة، والخصوصيات الجمالية المتميّزة، **(فاعلم أنّه ليس يُنبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده، وفضل يقتدحه العقل من زناده)**[2]. فالمزية عند الجرجاني رهينة بالبناء الفني والنظام المتكامل للصيغ التعبيرية والنحوية، تمنحه إمكانات عديدة، تجعل المتكلم إزاء اختيارات نظمية لسلسلة من الأوضاع اللفظية، التي ستشكل بفعل

(١) محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، ص٤٢.

(٢) الجرجاني(ت٤٧١هـ)، أسرار البلاغة، ص٥-٦.

أوضاع التعلق صورا أسلوبية واستخدامات لغوية، تتداخل فيها الأفكار والمعاني تداخلا خاصًّا، واختيار الصور النحوية على هذا الأساس اهتداء إلى جمالية التعبير، وإلى صياغته وفق الحاجة ومقتضى المقام، وتكريس لآلية النحو وقدرتها على تقديم أنساق متميّزة، تتجاوز فيها القاعدة/ الحقيقة، إلى الاستعمال/ التعبير المجازي، (**ومن ثمّ، فإنّ إدراك عبد القاهر لأهمية الجانب الدلالي، لم يكن إدراكا بأهميته التفسيرية باعتباره مكونًا تفسيريًّا فحسب، كما يذكر ذلك تشومسكي، بل إدراك بأهميته باعتباره ندّا مماثلا للتركيب النحوي**)[1]. فالنحو قد أخذ نهجه العقلي، وتجاوز أعتاب الوسيلة التواصلية الأولى والبسيطة إلى وضع التوليد الجمالي القادر على تقديم صيغ فنية، قادرة على تبليغ القصد، وقد تبلور جهد عبد القاهر الجرجاني (**في إعطاء النحو إمكانات تركيبية مستمدة من قواعده العقلية، بحيث أصبحت هذه الإمكانات أشبه شيء بصندوق مغلق، له مدخل ومخرج، تدخل فيه المفردات وتتفاعل، ثم تخرج على الصورة التأليفية الجديدة، ونحن لا نلمس سوى المظهر المادي للعملية، أمّا الجانب العقلي فهو خفي داخل الصندوق**)[2].

(١) حسام البهنساوي، أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث، ص٣٨-٣٩.

(٢) محمد عبد المطلب، النحو بين عبد القاهر وتشومسكي، ص٢٨-٢٩.

خاتمة: اعتناء النحو بالمعنى يؤكد رأي الذين يعدّون علم المعاني قمّة الدراسة النحوية، ويلحون على عدّه مستوى راقيا من مستويات ما يمكن أن أسميه بالنحو الوظيفي والجمالي، ويعدّون هذا الإلحاق تكريسا لأدوار علم النحو في تشكيل الصيغ النظمية على اختلافها، وإحياءً لروحه التي أزهقت على يد بعض علماء القواعد والتصنيف، كما أثبت اعتناء النحاة بالمعاني النحوية إدراكا مهما لاختلافها تبعًا لاختلاف التغيرات التركيبية، فالخبرة بالتركيب اللغوي هي في ذات الوقت جلاء للغرض المعبر عنه.

لقد كرّست العلاقة بين القاعدة والدلالة دور النحو في جمالية اللغة، فهو الرابط بين صيغها، المساعد على تجاوز أوضاع الصياغة إلى مرحلة التميّز والخصوصية، ذلك أنّ قوام التعبير عناصر القاعدة والجمال، والإمكانات التركيبية للمفردات اللغوية، وقد تجلى ذلك بوضوح في أعمال عدد من النحاة وعلماء العربية الذين كشفوا عن قدرة المتكلم العربي على تشكيل المعاني بالزيادة والنقصان في الصيغ النظمية على اختلافها، وأبانوا عن قدرة النحو على تقديم نسق من القواعد والجمال الأسلوبي من خلال نظم الكلمات وفق قواعد الصياغة التعبيرية، التي ليست في جوهرها إلا إمكانات متميّزة يتيحها النحو لإكساب البناء النظمي القيمَ الفنيةَ.

كما أكّدت هذه العلاقة تأرجح البناء اللغوي بين الاختيارات

النحوية والأوضاع اللفظية لدور قواعد النحو في تشكيل النسق الفني والجمالي للبنية النظمية، ذلك أن النظم علمٌ للمعاني، وعلمٌ لفن العبارة، وشكَّل نظريةً لفهم العلاقات النحوية بين الكلمات وبين التراكيب؛ لأنّ مدارها المعاني النحوية التي تختلف باختلاف الوجوه العديدة التي يمكن أن تكون عليها الاستعمالات اللغوية.

إنّ ارتباط النحو بالنظم، وعلم المعاني بالمزيّة، في الدرس اللغوي العربي ليعكس تداخل آليات الخطاب العربي، وتفاعلها المؤدي إلى فنية اللغة وجمالها، وما الفصل بين النحو وعلم المعاني إلا انحراف عن مسار الدرس النحوي، الذي أضحى لفظيا عند بعض نحاة العربية، دفعهم إلى عملية الاختزال في نظرية العامل.

في المقابل اتجه أهل المعاني الذين عُدّوا نحاة حقيقيين إلى تجاوز الضوابط النحوية التي تروم الصواب والخطأ، والأصول النحوية إلى وضع العملية النظمية القادرة على كشف جمالية الصور الأسلوبية، ودور الاستغلال الخاص للنحو في تشكيلها، من أهمّ هؤلاء عبد القاهر الجرجاني(ت٤٧١هـ) الذي استطاع بفضل منهجه العقلي استغلال المعطيات المعرفية والمنهجية لعلوم العربية لتقديم مفهوم جديد للنحو، حيث غزرت المادة النحوية لديه، واتسع أفقها، وأضحت قواعد النحو من طرق التصوير والصياغة، وأساسا نحو القيم الفنية، وهو الشيء الذي دفعه إلى إخضاع كل نشاط لغوي لدور القواعد النحوية في

الأوضاع اللفظية، وعدِّ أبواب النحو أصولَ علم المعاني، وعلم البيان، وذات فضل في دراسة الأسرار التي تضمها الصور الفنية.

لقد أخذ النحو عند أهل المعاني شكله العقلي، وغدا أساسيا لتوليد القيم الفنية، وإدراك المقاصد الواعية للإنسان، وقادرا على تجاوز دور القواعد إلى وظيفة توليد دلالات ذات قيم ومقاصد فنية، وبهذا التوجه نستطيع إحداث التناسب المنشود بين الأشكال الفنية والجوانب النحوية اعتمادا على الوصف والعقل، وعلى التشغيل الوظيفي للقواعد النحوية رفقة المعاني البلاغية بأسلوب أجمل وأرقى.

ثبت المصادر والمراجع

١- **القرآن الكريم**، رواية الإمام ورش، (القاهرة: دار المصحف، (د. ت)).

٢- إبراهيم خليل، **الأسلوبية ونظرية النص**، (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط ١، ١٩٩٧).

٣- إبراهيم مصطفى، **إحياء النحو**، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، ط ٢، ١٩٩٢).

٤- ابن الأثير(**ت٦٣٧هـ**)، ضياء الدين نصر الله بن محمد، **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، تحقيق أحمد الحوفي، بدوي طبانة، (القاهرة: دار نهضة مصر للطبع والنشر، ط ٢، (د. ت)).

٥- أحمد سليمان ياقوت، **دراسات نحوية في خصائص ابن جني**، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م).

٦- أحمد مختار عمر، **علم الدلالة**، (القاهرة: عالم الكتب، ط ٦، ٢٠٠٦).

٧- تمام حسان، **اللغة العربية معناها ومبناها**، (الدار البيضاء: دار الثقافة، (د. ت)).

٨- الجرجاني (**ت٤٧١هـ**)، عبد القاهر بن عبد الرحمن، **أسرار البلاغة**، تحقيق محمود محمد شاكر، (جدّة: دار المدني، ط ١، ١٩٩١).

٩- الجرجاني(**ت٤٧١هـ**)، عبد القاهر بن عبد الرحمن، **دلائل الإعجاز**، تحقيق محمود محمد شاكر، (القاهرة: مطبعة المدني، ط ٢، ١٤١٠هـ-١٩٨٩م).

١٠- ابن جني(**ت٣٩٢هـ**)، أبو الفتح عثمان، **الخصائص**، تحقيق محمد علي النجار، (المكتبة العلمية، (د. ت)).

١١- حاتم صالح الضامن، **نظرية النظم: تاريخ وتطور**، (بغداد: وزارة الثقافة والإعلام، ١٩٧٩).

١٢- حسام البهنساوي، **أهمية الربط بين التفكير اللغوي عند العرب ونظريات البحث اللغوي الحديث**، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤١٤هـ-١٩٩٤م).

١٣- حلمي خليل، **العربية والغموض**، دراسة لغوية في دلالة المبنى على المعنى، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ط ١، ١٩٨٨).

١٤- درويش الجندي، **نظرية عبد القاهر في النظم**، (القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٩٠).

١٥- ستيفن أولمان، **دور الكلمة في اللغة**، ترجمة كمال محمد بشر، (القاهرة: مكتبة الشباب، ١٩٧٥).

١٦- سمير شريف استيتية، **اللسانيات: المجال والوظيفة والمنهج**، (إربد، الأردن: عالم الكتب، ط ٢، ٢٠٠٨).

١٧- سمير شريف استيتية، **منازل الرؤية: منهج تكاملي في قراءة النص**، (عمّان: دار وائل، ط ١، ٢٠٠٣).

١٨- السيد فضل، **جماليات اللغة بين القاعدة والاستعمال**، دراسة في أصول النقد العربي، (الإسكندرية: منشأة المعارف، (د. ت)).

١٩- عبد العزيز عبده أبو عبد الله، **المعنى والإعراب عند النحويين ونظرية العامل**، (طرابلس، ليبيا: منشورات الكتاب والتوزيع، ط ١، ١٣٩١هـ-١٩٨٢م).

٢٠- عبد القادر حسين، **أثر النحاة في البحث البلاغي**، (القاهرة: دار نهضة مصر، (د. ت)).

٢١- عبد النبي هماني، **آليات تحليل الخطاب**، تفاعل المبنى والمعنى في الدرس اللغوي العربي، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ط ١، ٢٠١٥).

٢٢- عبد النبي هماني، **جمالية تحليل الخطاب**، دراسة لغوية وظيفية لبدائع الفوائد لابن قيم الجوزية(**ت٧٥١هـ**)، (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ط ١، ٢٠١٤).

٢٣- عبد النبي هماني، **ظاهرة الإعراب بين المواضعات اللغوية والعلاقات التجاورية**، (الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، تبين للدراسات الفكرية والثقافية، العدد ٧، المجلد ٢، شتاء ٢٠١٤).

٢٤- عبد النبي همامي، **نظرية الإعراب بين فاعلية العامل وتضافر القرائن**، قراءة في البديل الجديد لتمام حسّان، (جدة: النادي الأدبي الثقافي، جذور، العدد ٣٦، مارس ٢٠١٤).

٢٥- عفت الشرقاوي، **بلاغة العطف في القرآن الكريم**، دراسة أسلوبية، (بيروت: دار النهضة العربية، ١٩٨١).

٢٦- العكبري (٦١٦هـ)، أبو البقاء، **ديوان أبي الطيب المتنبي (ت٣٥٤هـ)**، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، (بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٣٩٧ه-١٩٧٨م).

٢٧- كريم زكي حسام الدين، **أصول تراثية في اللسانيات الحديثة**، (القاهرة: الرشاد للطباعة، ط ٣، ٢٠٠١).

٢٨- كمال محمد بشر، **دراسات في علم اللغة**، (القاهرة: دار المعارف، ط ٩، ١٩٨٦).

٢٩- محمد عبد المطلب، **البلاغة والأسلوبية**، (بيروت: الشركة المصرية العالمية للنشر، الجيزة: لونجمان، ط ١، ١٩٩٤).

٣٠- محمد عبد المطلب، **النحو بين عبد القاهر وتشومسكي**، (فصول، المجلد ٥، العدد ١، ١٩٨٤).

٣١- محمد عزام، **من دلائل الإعجاز في علم المعاني**، (دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٨).

٣٢- ابن المعتز(ت٢٩٦هـ)، أبو العباس عبد الله بن محمد، **ديوان أشعار الأمير أبي العباس**، تحقيق محمد بديع شريف، (القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٧).

٣٣- منيرة بنت سليمان العلولا، **الإعراب وأثره في ضبط المعنى**، دراسة نحوية قرآنية، (الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٤١٣هـ-١٩٩٣م).

٣٤- مهدي المخزومي، **في النحو العربي**، نقد وتوجيه، (بيروت: دار الرائد العربي، ط ٢، ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م).

٣٥- نصر أبو زيد، **مفهوم النظم عند عبد القاهر الجرجاني**، قراءة في ضوء الأسلوبية، (فصول، المجلد ٥، العدد ١، ١٩٨٤).

٣٦- وليد محمد مراد، **نظرية النظم وقيمتها العلمية في الدراسات اللغوية عند عبد القاهر الجرجاني**، (دمشق: دار الفكر، ط ١، ١٩٨٣).